فصل الشوق والحزن

«قصيدة» قصيرة

رحلة زوجية

من زاوية البحث عن المواقف .
في قصيدة « الحب
في ديوان « القرون »

قصيدة القادر الشاوى

1 ــ تبدأ قصيدة « همسة » من ديوان الحب مهزلة القرون (1) بتسجيل بعض المواقف الفكرية انطلاقا من فهم عنبية محمد الحمرى ، لشعر نزار قبانى كما يلى د

ا) ان نزار يمتع الناس بالكلمات .
ب) باللذات والقبلات .
ج) نزار أنفق عمره فى الغرام مراحقا .
د) يسود آلاف الصفحات .
هـ) يردد الازمات .

من المفيد بدءا ، فى محاولة لاشتشراف ابعاد التجربة الشعرية عند الحمرى ، الاشارة الى المفهوم الذى يعطيه نزار لدور الشعر . نزار ، « لن يكون الانسان شاعرا فى الوطن العربى ليس معجزة ، بل المعجزة الا يكون » (2) .. الجاحظ (الشعر فضيلة العرب) . نفس الموقف الذى ابدعه الجاحظ من منطلقات واقع مغاير تماما ، بحكم التطور ، يسقط نزار اطلاقية اخرى تؤكد ذات الجاحظ وفكره . الشعر المعجزة ، الشعر الفضيلد وانعدام كينونة الشعر بالنسبة للمواطن العربى « المبدع » هو المعجزة فى اجلى صورها . يلتقط نزار بكل حذاقة مقومات الفكر الخرافى الذى قولبه الجاحظ اعتمادا على تجربة واقع عصرم ، ليجعل منه فكرا قائما خارج التطور ، فكرا يشكل ولا يشكل أى ذلك الفكر الذى يبدع الفرد ، دون أن يكون الفرد هو الذى يبدع الفكر ويطوره ويدفعه الى الامام ، تحقيقا للنتيجة التى يود أن يصل اليها نزار فى الاخير ، بفضل الوظيفة الابداعية عن مجمل الواقع الذى يشكل الفرد .

ايضا الشعر عند نزار هو الرقص ، هو الرقص باللغة ، والشعراء يؤدون رقصة متوحشة ، لان الشعر مزروع فى الشاعر ، الشعر حصان جميل الصهيل ، كل واحد يركبه على طريقته الخاصة ، الشعر اذن سائل

شديد التبخر والتمدد . فأين الحقيقة الشعرية ؟ . نزار بكل بساطة وسذاجة يجيب لا شيء . ويكون عنيا محقا فيما ذهب اليه من خلال قصيدة «همسة» من أن نزار (لا يرى مليون قلب غام بالعبرات ــ والاخرين مشردين على الثرى آمالهم تنساب فى الفلوات) (ص 62 ، الديوان) .

2 ــ كيف يفهم الحمرى دور الشعر فى سنة 1968 ؟

فى معرض الرد على نزار ، يرمى الشاعر فقط ببعض المواقف ، لا تشكل رأيا تاما ، ولكنها مع ذلك هى الدليل الان فى فهم ما يقصده عنيا : (كل القصائد فى الغرام هزيلة ــ والشعر كان لاكدح الطبقات) (ص 64).

مبدئيا ، اطرح التساؤل الاولى ، هل استطاع الحمرى أن يخضع مجمل رؤياه الشعرية فى الديوان ، لروح هذا البيت الشعرى الرائع ؟ وايضا التساؤل الجزئى : ما المقصود بقصائد الغرام ؟

عن السؤال الاول ، من يقرأ الان ديوان « الحب مهزلة القرون » لا بد وان يخرج بالملاحظات الاتيــة :

+ **الملاحظة الاولى** ان الشاعر الحمرى ينحاز فى الجــزء الاول مــن الديوان ، الى جهة التعريفات الخرافية التى اسقطها نزار على دور الشعــر وهدفه ، فالشعر ــ المعجزة الذى لوح به قبانى هو ذاته الافتراض الذى اقمناه المؤسسات الاقطاعية والبورجوازية السائدة فى العــالم العربــى ، للتدليل على صحة (الاحداث التى تمطرها السماء) (3) . اى أن التعامــل الشعرى مع الوقائع الموضوعية المحددة يتم وفق معطيات ذاتية آسرة ، يتغلب فيها عنصر الشعور الحسى على عنصر الوعى . ومتى كان الشعور الحسى هو الموجه ، اى هو الذى يقود الى « الحقيقة » ــ دون أن تكــون موضوعية ــ يكون من المفروض ، ولا اقول من الطبيعــى ، أن تكــون للرؤية التى يهتدى بها الشاعر فى معرفة « كل شيء » ، هى رؤية الذات فى تعرفها على الواقع القائم خارجها . الوعى لا يكون الا تعاملا موضوعيا مع الواقع الملموس . عنيا فى قصائد (رؤيا ــ حلم ــ لو تعلمين ــ بعد أيام ــ انتظار ...) ، ينحاز بشعور حاد ومتوقد الى جانب المرأة الخرافية النزارية مع فارق واحد ، فهى عند نزار للامتاع الذاتى ، وهى عند الحمرى التى تعذب .

+ **الملاحظة الثــانيــة** : ان الشاعر الحمرى مــن حيث يقف موقفا عدائيا لفظا من النتاج النزارى شعرا ، يعمد بالمقابل الى النهل من قاموسه الشعرى ، دون أن يكون ذلك موقفا فكريا يؤدى الى تمثل تجربته كاملة . ان هذا القاموس ــ المرأة الخرافية ، الذى تعارف عليه القراء فى شعر نزار على امتداد فترة طويلة ، تظهر بعض مفرداته واضحة تماما ، عند ما يتعامل عنيا مع المرأة والحب . يبقى المقصود بالضبط أن الشاعر عند ما يجنــد كامل شعوره لكى يتخذ موقفا مبدئيا من المفهوم الشعرى النزارى ، يقصر

ان البعد الحدود فى تجاوز ذات المفهوم ، ومن ثم يسقط فى لسوك بعض المفردات ــ وان كانت فى معناها تؤدى غرضا قائما بذاتــه ــ الا انهــا المفردات التى استعملها نزار أو اى شاعر آخر . اننا هاهنا بطبيعة الحال لهلم الموقف الذى ينقض ذاته « ببراءة » الشعراء (عند ما يتعاملون مــع موضوعات تكون ذات ارتباط بعواطفهم) ، وينقضه لانــه لا يقــوى على تجاوزه . حقيقة ان تجربة الحمرى تقف أمامنا شاهدا على « طراوتها » اى انها التجربة الابتدائية التى خبرها الشاعر فى موضوعات لها علاقة وثيقــة بتجربته فى الحياة الاجتماعية ، الا انها التجربة التى كثيرا ما يفلح فى فلسفتها ويتفو البورجوازية الصغيرة (4) (انظر النص رقم 1 فى آخر البحث) .

+ **الملاحظة الثــالثــة** : يلتقى الشاعر الحمرى مع نزار قبانــى فى طرح جملة من الموضوعات المتعارف عليها فى (قصائد الغرام) . ولهذه الموضوعات علاقة مباشرة بالمرأة والحب واللقاء الاول والعينين والحزن ، اى جملة الموضوعات التى يستهلكها الشعراء فى طور حداثتهم الفنيةوالادبية (ان هذا الطور المعبر عنه هذا ليس قانونا مطلقا يمر به جميع الشعراء) تحت واقع شرطين : الاول ، الواقع الاجتماعى خلق من الحمرى الشاعــر الذى يريد المرأة كذات اخرى ، ويريدها فقط ، وخلق من نزار الشاعر الذى وجد المرأة ، وايضا خبر عالم المرأة ، ومن ثم فتت أعضاءها الى جزئيــات صغيرة ، وجد احساسه فيها لذة والما . الثانى ، مستوى الوعى الطبقى ، وهو نفسه حدد رؤيا الشاعرين تجاه المرأة ، وبه كان تعامل نزار مع المرأة تعاملا بورجوازيا صرفا وبدون تحفظ (يقول نزار انه أراد بذلك ان يصدم الوجدان العربى التقليدى ، وينسى ان البورجوازية تنسف كل الصــلات العائلية) . وبه ايضا كان تعامل الحمرى مع المرأة تعاملا بورجوازيا صغيرا، الا أن طابعه العام هو التحفظ والعفاف والتسليم بقوة الاقــدار فى توفير الحظوظ لمن تشاء وبما تشاء (5) (النص رقم 2) .

3 ــ من ضمن هذه الملاحظات اذن يمكن الان الاجابة عن السؤال الجزئى الذى طرحته من قبل بخصوص ما المقصود بقصائد الغرام ؟ ان هذا التعبير ذاته ، العام ، يفضح الى أى حد استطاع الحمرى أن يلتزم بموقفه المبدئى من شعر نزار ، والواقع انه لا يلتزم به ، لانه يسقط مــن حيث يقسم الشعر الى غرام ولا غرام فى ذات المفاهيم المتعارف عليها فى الشعر العربى . حقيقة أن نزار ذوب « الغرام » فى شؤونه الصغيرة والكبيرة ولكن ايضا من منطلق اعتبار ان هناك « ذلك » الفرق بين الرجــل والمــرأة ، وهو نفس المنطلق الذى تحكم فى تجربة الحمرى على امتداد (الحب مهزلة القرون) . ان المقصود بقصائد الغرام بكل تحديد ــ ودائما مــن خــلال فهم الحمرى ــ ذلك النوع المرتبط بالعاطفة الانسانيــة ، اى بالجــانب الذاتى من حياة الشاعر ، ان كل ما يتم فى عالمه الداخلى هو بطريقة او

بأخرى من صنعه ويكشف عن حاله ، وقصائد الغرام هى لسان الحال ، اى لسان مجموع الرغبات الذاتية التى يكنها الشاعر تجاه موصوف آخر « المرأة » . ان الحمرى عند ما وضع نزار من ضمن شعراء الغرام ، بالطبع صنع لنفسه كادرا خارجهم ، كما لو انه أراد أن يقول : اننى لست شاعر الغرام . وبطبيعة الحال سيقف القارىء فى عالم تجربته على نفس المقومات التى تحكمت فى شعراء الغرام وفرضت عليهم مواقف مختلفة ومتباينة ، بحكم اختلاف وتباين مستوياتهم ونظرتهم الى الحياة ووضعهم الطبقى ووعيهم بالتالى ، وتكون الخلاصات : هذه التناقضات الواضحة التى طبعت موقف الحمرى تجاه شعر نزار برمته ، وبالتحديد ذلك التناقض بين موقف ذاتى وحالة موضوعية قائمة ، الموقف الذاتى فى تمثل التجربة العاطفية بكل أبعادها ، والحالة الموضوعية فى العدول عن التجربة العاطفية والالتزام بالواقع المرير ، أى الالتزام بنقيض الشعور البورجوازى الصغير ، نظما وممارسة .

4 ــ من هنا فقط يمكن أن نخلص الى تحديد فهم الحمرى لدور الشعر فى 1968 ، هذه السنة بالضبط لاعتبارين اثنين :

ا) هى الفترة التى صدر فيها الديوان ، رغم انها لا تعنى بأى حال الفترة الناضجة فى تجربة الشاعر ، انها فقط الفترة الابتدائية التى تمرن فيها على اداء اللغة والتعبير عن الاحساسيات العاطفية ، والتقاط بعض القضايا الاجتماعية دون أن يمتلك رؤية واضحة حيالها ، انه بمثابة الشاعر الذى يبحث عن كل شىء ولا يمتلك اى شىء .

ب) هذه السنة ايضا تعكس بوضوح جملة من التطورات الموضوعية فى الساحة الوطنية (بداية نهوض الحركة الجماهرية اضرابات عمالية واسعة انتفاضات فلاحية ...) عربيا ، هزيمة يونيو 1967 وما تلاها من احداث جسدت بالملموس هزيمة مجموع التكوين الطبقى البورجوازى الصغير للانظمة الوطنية فى العالم العربى ، وسقوط برامجها السياسية والعسكرية ، انها البداية الفعلية للمقاومة الفلسطينية ...

وبالتحديد فى عملية البحث الجدى عن المفهوم الشعرى عند الحمرى فى هذه الفترة بالضبط ، دون الوعى بهذين الاعتبارين ، سيكون بالفعل ، ضربا من البحث عن مجهول . الا أن هذه العملية ذاتها ستكون ناقصة ما لم نفترض ان الديوان (من حيث الفترة الزمنية) وبالنسبة للواقع الموضوعى فى بلادنا يأتى سابقا لبعض التطورات السياسية التى تبلورت عمليا فى 1968 . ان الاقرار بهذا لا يعنى على وجه الاطلاق تنحية وعى الشاعر عن مجمل التطورات التى شهدتها الساحة الوطنية ــ العربية .. ولكنه يعنى بكل بساطة وجود الشاعر خارج هذه الساحة وممتلكا لوعيه التام ، ولكن لفائدة الموضوعات التى اختارها كمستويات للتعبير فى ديوانه (الحب مهزلة القرون)

فى نفس الموضوعات التى يربطها خيط الاهتمامات الذاتية من الحب فى اجلى صوره الى الواقع فى بعض جزئياته .

5 ــ ان الحمرى عند ما حاول كما سبق ان اشرت ، من قبل ، ان يتخذ موقفا مضادا لازار ، حدد مواقفه الفكرية شعرا على النحو الاتى :

الموقف الاول : ان الشعر ليس لذاته او لذات الشاعر ، بل لذاته ممزوجة بذوات الاخرين (ص 62) .

الموقف الثانى : ان الشعر يجب ان يوظف لصالح الجياع « والاخرين المشردين » « ولمليون قلب غام بالعبرات » .

الموقف الثالث : كل القصائد فى الغرام هزيلة ــ والشعر كان لاكدح الطبقات

ان كل هذه المواقف تبدو متقاربة فى تحديدها لدور الشعر وهدفه ولكن بشكل عام . اى من زاوية اخضاع العملية الابداعية لصالح عملية التطور داخل المجتمع ان التطور داخل المجتمع يعنى عمليا الاقرار بدور الصراع الطبقى رغم أن عنيبة الحمرى لا يفهم ذلك عند ما يتكلم مثلا فى (حديث عن المعركة) عن فلسطين ، او (الاكواخ) فى (الخبر الاول) (ص 78). ورغم تقارب هذه المواقف الا انها تعطى انطباعا واضحا عن الفهم المتطور ــ بالنسبة للواقع الذى عاشه الشاعر ــ لدور الشعر فى مجتمع مختلف اقتصاديا واجتماعيا ... الا أن الصيغة العامة ، غير المحددة التى تميز فهم الحمرى لدور الشعر ، تعكس بوضوح الموقف الذى يتراوح فيه بين الانحياز الفعلى جهة نشدان التطور ، وبين الانفراد بذاته لفترة اشباع نهمها العاطفى ، وتعكس أيضا التذبذب الذى يطبع مواقف المثقفين كفئة خاصة غير متجانسة ، ترفض ضمن ما ترفض النظام والتنظيم . ومع ان هذه السلبيات يمكن اعتبارها بداية تحول جدى فى حياة الشاعر ، يبقى ذلك التساؤل معلقا عن كيفية تجاى هذا التطور فى حياته ، وبصفة خاصة فى انتاجه الشعرى كموقف مبدئى وان كان لفظيا .

6 ــ ازاء تحديد مفهوم واضح لدور الشعر ، ينشطر الديوان على نفسه فى محاولة لتأكيد اتجاهين :

الأتجاه الاول ــ الاهتمام الكبير بالذات ، أى الاهتمام بما يربطها بعواطفه المفقودة ، او التى تبدو صعبة المنال .

الأتجاه الثانى ــ الاهتمام الصغير بالواقع ، أى الاهتمام بما يجعل الشاعر حاضرا ولو حضورا شكليا (على اعتبار انه تحت تأثير استلاب ذاتى) فى حلبة الواقع المجتمعى ، من ناحية ازاء الصراع فيه ، ومن ناحية اخرى ازاء مناصرة غير مشروطة للطبيعة الطبقية التى يكون (هو) عنصر تحريض لارائها .

من البديهي أن الاتجاه الاول في الديوان يستغرق مرحلة (طفولة الشاعر) بكل آلامها وآمالها ، ومن ثم ينفرد بخصوصية التعبير عن الذات في الوقت الذي أراد الحمري أن يجعل بينها وبين الواقع تعارضا ، ردا بذلك على (القباني) . الا أن هذا الرد الشكلي بطبيعة تردده بين اختيار رأي منفرد . اي رأي خاص ومبتدع من الموضوع الذي وجد أمامه للمرة الاولى (المرأة — الحب) ، وبين تجاوز نفس الموضوع او طرحه على الاقل في صيغة مختلفة عن « موديل » نزار . الواقع اننا أمام اختيار صعب طالما ان الحمري فضل ان يكون شاعر (الغرام) والا يكونه في ذات الوقت نشأ هذا الاختيار الصعب من معضلة تقوم على اعتبار ذات الشاعر بديلا لواقع الموضوعي ، كما لو ان هناك امكانيات للاختيار . الواقع يحدب هذا على الاقل استنادا الى ما حاول أن يثيره الحمري في ديوانه من قضايا ، وبالمقابل فهو يحدب المنهج الخاطيء الذي ابتدعه بعض الشعراء المغاربة للتعبير عن معطيات الوضع الاجتماعي والسياسي في بلادنا (6) . وكان ان فضل الحمري القيام بهذا الدور في اسلوب تعامله مع المرأة ، ومع الواقع معا . دون ان يمتلك رؤيه واضحه ازاءها معا .

(المرأة) عند الحمري في قصيده رؤيا (ص 8) — عدا أنها موضوعة في اطار للتأمل الشعوري المصرف — تاتي دائما في صوره واحده ، مادة وصف (7) . هي المرأة — الحرافيه التي حولها الفكر البورجوازي الى سلعة تباع ، ثم وجد الشاعر نفسه وجها لوجه امام هذه المرأة النموذج ، اوصافها تكاد تكون جاهزه . وبديهي ان عواطف الشاعر نحوها كانت هي جملة العواطف التي يطفح بها الشعر العربي ، نفس العواطف التي تكررت في الشعر الحديث في المغرب وتكاد تطبع فترة استينات كاملة (8) . (النص رقم 3) .

الواقع الصغير الذي يتردد صداه في ديوان الحمري كاختيار ثاني ، ليس هو مشروع بحث جدي عن المعطيات والوقائع التي تعج بها الساحة الوطنية ، فقط انه الاهتمام الصغير ، وهو يعكس جانبا محددا من مشروع بحث الشاعر عن موصوف آخر ، الحمري لا يأخذ الواقع كلا ، لا يرفضه كلا ، انه يجزؤه الى وقائع صغيرة (بطالة — جوع — بائع الماء — ماسح الاحذية ...) دون أن يبحث عن دلالات هذه الوقائع في اطار الوضع الاجتماعي والاقتصادي ، في محاولة لضبط قانون الصراع داخل المجتمع . واعتقد أن ما يثني الشاعر عن هذه المحاولة يتحدد فيما يلي :

1) غياب وعي سياسي بغياب الموقف الفكري تجاه ما هو ملموس.

2) مستوى الوعي الطبقي الذي يضع الشاعر أمام معضلة انتماء حقيقي لشروط حياته الاجتماعية ، وأمام تطلعاته .. في محاولة لاختراق جدار التذبذب والبحث عن بديل يرضي طموحاته الفردية ، ان الحمري لا محالة

يرتبط بواقع ما ولكن ارتباط سطحي ، اى انه يبقى فى حدود الاحساس الاخلاقي بمشكلاته وازماته .

٧ ــ يمكن ان نلاحظ الان ان الاختيار الصعب ، الذى سبقت الاشارة اليه ، يبقى قائما فى التجربة الشعرية ، لانه يشكل احدى عناصرها (المراة ــ الحب) ، المراة ــ الخرافية على طريقة نزار ليست الا مظهرا بارزا لمجموع التكوين البورجوازى الصغير الذى قدمته التجربة فى فهمها لباقى الموضوعات المتناولة كما ان الواقع الموضوعى ليس الا مظهرا اخر . وهذا التناقض بين الاحساس المفجع بالذات المستلبة ، لانها تحب ــ تكره ، وبين مجموع القضايا فى الاطار الاجتماعى ــ من تحديد هذا التناقض يظهر الان بجلاء كامل المفهوم الشعرى ومستوياته وحتى ادواته التى يستعملها الشاعر فى التعبير والاداء ، كمفهوم يخضع التطور لحساب التجربة الذاتية اى المفهوم الذى يقود الحمرى الى تصريف طاقته الابداعية فى استهلاك الموضوعات المرتبطة بعواطفه وشؤونه الصغيرة . فالحقيقة التى أبدعها الشاعر (كل القصائد فى اغرام هزيلة ــ والشعر كان لاكدح الطبقات) تحولت فى ديوان الحمرى الى وهم حقيقى ، الموقف المضاد ايضا تجسده نزار ــ ولانه ليس موقفا مضادا سياسيا وفكريا ــ انكسرتحت وطأة الاتجاه الذى تمثل فى الديوان أكثر مما تمثل فى قصيدة (همسة) كقصيدة تفضح الافلاس لمحتوى توجه (شعراء الغرام) ، وتفضح أيضا الحمرى من حيث مثل الموقف المضاد لفظا . الان اذا كانت التجربة الشعرية فى الديوان تؤكد سيادة التفكير البورجوازى الصغير فان الموقف الفكرى فى الديوان من نفس المنظور يمثل اتجاهين :

ا) الاتجاه المرتبط بالتجربة الذاتية .

ب) الاتجاه المرتبط بالتجربة المعاشية فى الواقع .

٨ ــ من أجل تحديد وضعية الاخر ــ المراة فى ديوان الحمرى ، ومن نفس الزاوية التى أراد منها الشاعر أن يتجاوز القيم العاطفية المتعارف عليها بهدف رسم خطه الفكرى ، سأكون مضطرا أن أستعمل تعبير (الوضوح الرومانسى) لانه يكون التجربة الشعرية ويشكلها ــ ليس المقصود التجربة الشعرية المطلق ــ بل تلك التجربة التى ارتبطت فى الديوان بالمراة ، ثم ارتبطت بالواقع فى محاولة لوضع حاجز ما بين تلك المراة (مجموع القيم العاطفية) وبين الواقع (كهدف يقوم خارج الذات ، أى تبقى قيمته غائية)، الوضوح الرومانسى الذى نطق به الحمرى شعرا ، وعبر به عن هواجسه واحلامه حيال المراة ، وهو اذ يعكس الفترة التى كان فيها على الشاعر أن يحدد طموحه ويرسم له السبيل ، يعكس بالمثل الموقع الذى ظل يراوح فيه بين حب المراة وعذاب المراة .. انه بالتحديد الممكن الوحيد ، أمام تحديات الواقع الذى وجه الحمرى الى التسليم بـ (صحة) تراث موجود،

منعلقا بامكانية اعطائه نفسا جديدا ، ولكنه يقع فى نفس الوضوعات التى تمت المصادقة عليها فى الشعر العربى بالاجماع . (النص رقم 4) .

9 — الارتباط بالاخر فى تجربه الحمرى موضوعيا هو الارتباط بالقيم الاقطاعية — البورجوازية فكريا السائدة فى العالم العربى . ان هذا لا يعنى أن الشاعر يختار هذه القيم عن وعى ، بل ينحاز اليها كما ينحاز الحنوى (انغام واصداء (9)) ، او السولامى (حب) ، او رشيد المومنى (حينما يورق الجسد) لانها ترتبط خارج دائرة مفهوم الشاعر باطار تاريخى صنعه الفكر الخرافى ، وضمن شروط استمراره فى حلقته انها القيم التى ترتبط بالانماط الاساسية للفكر السائد فى المجتمع المغربى ومن ثم المجتمعات العربية . الارتباط بالاخر — المرأة عند الشاعر يجد تبريره الدينى فى الموقف العام للفكر السائد من المرأة ، ويجد تبريره ايضا فى شيوع العديد من التصورات المرتبطة باطارات تاريخية (الدين — علاقات الانتاج) . ولما لم يحاول الحمرى طرح الاسئلة المشروعة : ما هى المرأة ؟ ما دورها ؟ اخذ مباشرة بالتصورات المعروفة وعرضها شعرا . (النص رقم 5) .

10 — سأحاول أن أطور المسألة ، وأطرح التساؤل التالى : هل كان بامكان الحمرى ان يتجاوز المرحلة التى انطلق منها ؟ بمعنى هل كان يملك وضوحا فكريا يؤهله لطرح المسألة تاريخيا (انطلاقا من المرحله) نقديا (انطلاقا من مفهوم فكرى — سياسى) علميا (فى اطار الوضع الطبقى داخل المجتمع) ؟

النقطة الاولى : يرفض الحمرى أن يتكلم عن ديوانه الاول ، ويرفض ذلك لانه يعتقد أن تجربته فيه تعكس مرحلة متخلفة عن طموحه آنيا ، وهذا أمر طبيعى اذا قيس بواقع التطور . ان هذا الرفض يعكس تماما الموقف الاخلاقى الذى يحاصر الشاعر وهو لذلك يبدو رفضا مجانيا .

النقطة الثانية : التجربة الشعرية فى ديوان الحمرى ترتبط فى مضمونها العام بواقع ومستوى التجربة الشعرية فى المغرب والعالم العربى، وأعتقد أن المرحلة التى انطلق منها الشاعر فى ظل هذه التأثيرات اخضعته لمكوناتها الفكرية والاجتماعية وهو لذلك لم يكن مستعدا — انطلاقا من غياب وعى ناضج — لوضع تجربته فى تعارض مع سلطة هذه القيم .

النقطة الثالثة : ان المستوى الطبقى الذى عبر عنه الشاعر فى الديوان عكس القيم المتعارف عليها بخصوص المرأة والحب والحياة ككل ، ولذلك كانت هذه القيم أحادية الجانب ، بمعنى مفرغة من محتواها الايديولوجى (لصالح من ؟) . هل المرأة التى نعثر عليها فى الديوان هى فعلا المرأة التى كان يبحث عنها الحمرى ؟ الم يكن بالتحديد واقعا تحت سيطرة الفكر البورجوازى أساسا فى فهمه للمرأة ودورها ؟

النقطة الرابعة : وضعية المرأة ، ليس فى الشعر المغربى وكفى ،

بل وفى الشعر العربى ، جاءت نسخة طبق الاصل للقيم التى بلورها الفكر السائد على امتداد حقبة طويله (10) .

النقطة الخامسه : المرأة فى شعر الحمرى موضوعة فى اطار عاطفى صرف .

ـ قصيده (خاطىء ص 12) ـ الهمس الساحر ـ الروح والجمال ـ الدموع والمحاجر ـ الخجل .

ـ قصيدة (حلم ص 17) ـ رعشة القلب ـ ملهوفة ـ القبلات والصمت .

ـ قصيدة (ماتت الحسناء ص 19) ـ شفق الغروب ـ اليأس الشاحب ـ دمع الجفن .

قصيدة (لو تعلمين ص 22) ـ العبرات الهائمة ـ طيف ـ القلب الباكى ـ الاسى ـ الحنان .

ـ قصيدة (ياموت ص 24) ـ الفؤاد ـ الحزن ـ الدموع ـ الشوق ـ القلب .

ـ قصيدة (بعد ايام ص 26) ـ الفؤاد واللوعة ـ الهناء والفراق ـ اليأس .

ـ قصيدة (عند ما تغفى الشموع ص 28) ـ الارق ـ شؤون من هواها ـ الحزن ـ طيف الحبيب .

« سترددين قصائدى عن وحدتى
تحكى غرامى والسهاد وحرقتى
فدعى فؤادك قبلتى
يا زاهرتى .. »

من هذا المنظور ذاته معقدا ومتشابكا ، يصبح الجواب عن التساؤل الذى طرحته من قبل ممكنا : ان الحمرى يفشل فى تقديم نفسه خاليا من شواغل المرحلة ولذلك فهو يلخصها بوعى سطحى وادراك مبهم. انه يقدم نفسه من ضمن التشكيلة الفكرية والسياسية التى يعرضها الفكر السائد للاستهلاك المحلى (ودائما يسقط فى مستنقع الفرغرة الطويله) (11)

11 ـ الوضوح الرومانسى الذى اشرت اليه فى البداية يجد محتواه الفعلى من جهة فى الوضوح الذى يطبع قصائد الحمرى (دون ان يكون هذا الوضوح موقفا فكريا) ومن جهة فى القيم العاطفية ، وهذا يعنى ان الشاعر يصدر فى تجربة الديوان الاول عن تصور خاطىء لطبيعة العمل الادبى فى مجتمع متخلف وبالنتيجة عن تصور خاطىء لدوره . معناه ان الحمرى اراد من تجربته أن تكون عنوان تفرده بتصورات هى فى الواقع خاطئة ، ومعناه ايضا أن الشاعر فى مسألة معالجة هذه القيم يبدأ من الخطأ (بدءا من التصور العاطفى للحب ، الى التصور العاطفى للمرأة ،

الى النطق أخيرا بصور الفكر الاسطورى ــ المرأة هى المظهر الذى يجب ان يغتسل فيه من الذنوب) ، الا أن ذلك فى التحليل الاخير لا يمكن فصله بداهه عن مستوى التجربه زمنيا ، وعن العلاقات التى كونتها وفى ذات الوقت عن ثقافته ووعيه . الصفر أيضا أن يقول الحلوى (دنيا من السحر فى اجفانها كمنت ــ وعالم خلف هاتيك الربى استترا) ، وفى تطابق غير تام معها يقول الحمرى (للافق مدت جفنها فى دمعة لم تذرف ــ وترددت اهاتها أغروده بالمعزف) (ص 21) ، يبقى أن الشاعر فى محاولة لحصر تجربته عاطفيا ، انتهى الى وصف تجارب الاخرين دون ان يكون هناك فى بعض الاحيان أى تعارض . ان الوصول الى هذا التحديد يعنى بالنسبة الى محاولة التأكيد على أن غياب الوعى السياسى والطبقى عن مضمون التجربة ، يعنى ،ماما التزكية الشرعية للعلاقات الاجتماعية والفكريه الكائنة ، واحيانا الدعاية لها من زاوية خاصة ، فى وقت كان بامكان الحمرى فيه أن يطرح التساؤلات المبدئية ، كيف يجب ان أفهم الواقع الموضوعى ؟ وعلى اى اساس ؟ غيبت

12 ــ الحمرى ليس شاعرا فوق الطبقات ، ولا يمكن أن يكون ، وهذا يعنى بالضبط انه يصدر فى تجربته عن واقع محدد الملامح والصفات أى (من حياة مجتمع معين فى العقل الانسانى) ، هذا الطرح يجيب كما اعتقد على : من اين ينطلق الشاعر ؟ بتعبير « جارودى » (كى عمل فنى اصيل يعبر عن شكل الوجود الانسانى فى العالم) (12) . بمعنى ينطلق من ارضيه ملموسه بهدف الوصول الى تصور جزئى او كلى للوجود الانسانى ، لا اقول فى العالم بل فى المغرب ، لقد تم ذلك عند الحمرى فى شكل ايديولوجى (الشعر) اولا ، ووفقا لعمل هو تعبير ذاتى عن البورجوازية الصغيره ثانيا (الموقف) ، ومعنى هذا أن تصور الوجود الانسانى فى المغرب يحمل ضمنيا تصور الحمرى له مشوشا وغامضا ، ومبتسرا ايضا . الانطلاق من الواقع فى تجربه الشاعر يؤدى حتما الى تصور الواقع . ذلك التصور القائم فى الذهن انطلاقا من وعى يحدده سلفا ، جاء الوعى فى الديوان مشوشا ، فجاءت طبيعة التصور مشوشة . قلت القائم فى الذهن ، ذهن الحمرى ، المثقف البورجوازى الصغير . انه يقدم فى الجزء الاول من الديوان نماذج بشرية ، تنتسب بتفاوت ملحوظ الى البنية الاقتصادية والاجتماعية القائمة ، الا أن القاسم المشترك بينها، هو وجودها فى حالة اقتصاد تبعى (الشحاذ ــ ماسح الاحذية ــ عاطل ...) . انهما بتحديد اكثر نفاية هذا الاقتصاد (النصوص 6 ــ 7 ــ 8) .

13 ــ يصل الحمرى فى الديوان بين الذات والواقع الموضوعى ، ولكنه وصل ميكانيكى بمعنى يتم وفق تحديد مسبق لعلاقة الشاعر بالمحيط الذى يتواجد فيه ، ويفهم متخلف الى ذلك . ولانه وصل ميكانيكى فقد جاء

بعيدا عن طرح المضمون الحقيقى لعلاقة العمل الادبى والفنى ببنية الواقع السياسية والاقتصادية (الخاصين بمجتمع معين) . ولان ذلك يتم بفهم متخلف فقد جاءت الصورة العامة للواقع مهزوزة ، ذلك أن الشاعر كان يبحث فقط عن نماذج يجدها تصوره الخاص لوضعها الاجتماعى ، دون أن يهتم بوضعها الاقتصادى ، بمعنى كان يبحث عن اطار عام يوظف فيه افكاره بعيدا عن التساؤل حول ماهيته .

14 ــ الواقع القائم بعلاته فى ديوان الحمرى يأتى مجزءا انطلاقا من فهمه له ، انه لا يوضح التناقض (بين المستغل والمستغل) ، ولا يرسم مجرى الصراع ، بل يعمد الى خلق تصور وهمى عن وضعية مزرية معاشة فعلا ولكنها غير محددة ،ان تصوره الاخلاقى يقف عند تلمس الظاهر بوعى جنينى مرتبط باحساس الشاعر نحو طبيعة القضايا التى يعيشها ، ومن ثم يريد التعبير عنها ، ولكنه ينسى أن (الطغيان الاقطاعى والبورجوازى على المستوى الاقتصادى والاجتماعى يصبح فى مجال الثقافة طغيان الاقطاع البورجوازى أيضا) بمعنى أن الحمرى يصل حتما الى تصور الواقع الموضوعى بطريقة مقلوبة ، أو هى طريقة أحادية الجانب .

15 ــ فى هذا الاطار هناك فى الديوان (ص 85 و 89) قصيدتان مضادتان . الاولى (حديث عن المعركة) تسجل بداية الحرب العربية الاسرائيلية :

ريح الشرق هبت من سماك
تريد العز للوطن الكبير
تباشير الضياء لنا انتصار
ونحن نخوض معركة المصير

والثانية تسجل نهاية الحرب العربية الاسرائيلية ، أنها تسجل الهزيمة المرتدة فى الوطن العربى .

يدك كانت تحيف تصنع من اصابعك السموم
قل لى اثقالك الشحمى اليوم غضبا والهموم)

انهما يعكسان طبيعة الوعى ومستواه الذى يقدمه الديوان لا فى فهم الواقع الاجتماعى والسياسى فحسب ، بل وفى فهم وظيفة الذات . هذا يعنى أن مستوى التحليل الذى قدمه الحمرى فى معرفة ما هو موضوعى لم يكن وليد قضية بل امتدادا طبيعيا لمستوى معرفة الشاعر وقدرة تصوره ولذلك يقع فى نفس الخطأ ، بعزل الظاهرة عن مجمل القوى والعلاقات والروابط التى تحكمها . فى القصيدتين (الحرب ــ الهزيمة) فصلهما عن القوى الاجتماعية التى قادت الحرب وحصدت الهزيمة ،وفى الجزء المخصص لرصد ظواهر الواقع الموضوعى ، عزل الظاهرة (بطالة) عن محتواها الاجتماعى والاقتصادى وهكذا . اى أن مستوى التحليل فى الديوان يسير

فى خطين متوازين (الذات ــ الموضوع) ، دون ان يكون الرابط الذى يحدد العلاقة الجدلية بينهما هو الذى يقود الى التعبير عن صحة وعيهما بمجمل الظواهر والقضايا المعروضة أمام الشاعر (الوعى لا يمكن أن يكون اى شىء غير الكائن الواعى) .

16 ــ فالبتر المتعسف بين الذات والوضوع قاد الى معضلة . على اى أساس يفهم الشاعر هذا الواقع المعقد والمتشابك ؟ أشرت من قبل الى الموقف الاخلاقى الذى يطغى كمفهوم وحيد الجانب ، وهو ذاته يدلل على الحياد الذى اختاره الحمرى فى التعبير عن كل ما سلف ذكره (ان الثقافة والادب تنتسب جميعا فى عالمنا الحاضر الى طبقات معينة وهى مرتبطة بانتهاج سياسة معينة ، وفى الحقيقة ان ما يسمى الفن من اجل الفن ، الفن الذى يقف فوق الطبقات ، الفن الذى ينفصل عن السياسة او هو مستقل عنها ، شىء لا وجود له) وقلت ان الحمرى يعكس فهما معينا ، ولان هذا الفهم كان معروضا عليه من الخارج ، اى من واقع تحليل فكرى سائد لعلاقات الانتاج وقوى الانتاج فى المجتمع المغربى ، فهو لذلك لا يخالف المعلومات الاولية التى تروجها الطبقات المستغلة عن السلام الطبقى والاخاء والمحبة ، ولهذا السبب جاء فهم الحمرى تبريرا ، بمعنى أنه عند ما يعرض الظواهر الاجتماعية ، فهو يحاول أن يربطها بقوة خارجية (القدر) (انظر النص رقم 9) تمهيدا لعزلها عن مضمونها الحقيقى (الاقتصاد) .

17 ــ اصل الى مستوى طرح بعض الاسئلة الجزئية :

1) هل كان بامكان الحمرى أن يقدم طرحا متقدما لعلاقة موضوعية بين الذات والواقع القائم خارجها ؟

2) هل كان بامكانه ان يأخذ بغير التفسير البورجوازى للمرأة ؟

3) فى محاولة لتحديد الظواهر الاجتماعية ، هل وقف أمام اختيارين . الاول ، تحديد طبيعتها ، الثانى ، ردها الى أصلها ؟

4) هل يسقط الموقف الفكرى والسياسى فى الشعر ؟

أن الشكل الذى كتب فيه الحمرى لا يقيم ادنى تعارض بين دور الشاعر ووضعه الاجتماعى ، لان الفن ليس سوى اسلوب حياة (جارودى) ولكه أيضا الاسلوب الذى يضع خطا فاصلا بين دلالات التقدم ، ودلالات التأخر ، بوعى وفهم صحيحين يطرحان : لمن الادب والفن ؟ لانها مسالة مبدئية واساسية .

النصوص :

النص رقم 1 ــ

خجولة يغار بعدك الغروب والمدى
بوجنتيك حمرة كعاشق اذا اهتدى

ومقلتاك لى ، هما معا أريد مرقدا
بحيرتان كانتا تحدثان مسهدا (ص 8)

النص رقم 2 —

اذا كان يمتعنا قصيد فى الهوى
فلاننـــا نحيـــا مـــع الخفقـــان
لكننـــا واليـــوم يقتلنـــا الطـــوى
فلـــرب بيت للجيـــاع يـــواتى (ص 63)

النص رقم 3 —

وشـوقى الغريب فى لقائها بـــلا مـــدى
اذا التقت عيوننـــا وعانقت يـــد يـــدا

النص رقم 4 —

يـــا للدمـــا بالغروب وكم أثار خواطرى
فالقبـــة الزرقـــاء القت ظلها للشاعـــر
حمراء فى خجل تطل على الغريب الحائر
وتموت بالشاطىء بقايا موجة كخواطرى (ص 14)

النص رقم 5 —

الدمع فى جفنيك من الم يزيد عذابيا
يالى من العبرات هائمة تثير فؤاديـــا
فالنوم لا يحلو وذكراها تذيب زمانيا
اجثو أمام الطيف ليلا كم أروم مكانيا (ص 22)

النص رقم 6 —

جـــن المســـاء
والشمس تفنى فى احتـــراق
وصـــوتـــه
قـــد لا يطـــاق
« الماء » نداء فى اختنـــاق
طـــول الـــزقـــاق
والسطـــل حـــول السطـــل تبـــدو فى عنـــاق
مـــا ذا اكـــل ؟
ايـــن المبيـــت ؟
لا لا تســـل
واللص لا ، ما عاد يرعبه الضياء
هـــو بامع الماء الكئيب (ص 73)

النص رقم 7 —

حبيبتـــى مـــات الهـــوى

والطفل يلتهم السجـــار
صندوقه البالى بجانبه يغار
فالاصـــدقـــاء
للمهنة المعطاءة باتوا كثار (ص 75)

النص رقم 8 ــ

فى كـــل يـــوم
كـــم وليـــد
وغدا سيزداد العـــدد
والحـــر يقســـو
والحصـــان بـــلا وتـــد
والعبد عندى كالحـــداد
صوتى يضيع مع الجموع بلا جواب
فهـــا هنـــا تبكـــى السمـــاء
ولا بذار ــ وها هنا الصيف الجميل ــ ولا ثمار ــ
اليوت ها أرض يباب (ص 84)

النص رقم 9 ــ

أو ما كفاك الدمع فى صميم الحجر ــ والعابـــرون
طريقهم وعلى سفـــر
وفى عيونهم حديث القبدر ــ الى متـــى نظـــل نحلب
كالبقـــر ؟ (ص 80)

نوفمبـــر 73

هـــوامـــش :

(1) الحب مهزلـــة القـــرون ، مارس 1968 ، مطبعـــة الاندلس ، الـــدار البيضـــاء .

(2) نزار قبانى ، قصتى مع الشعر ، منشورات نـــزار قبانـــى ، 1973 بيـــروت .

(3) قولة شهيرة للكاتب الصينى ، لوه سن

(4) المقصود بالضبط طبيعة فهم بعض الشعراء المغاربة لموضوعات المراة ــ الحب ــ الـــواقـــع .

(5) لا مجال لامقارنة بين نزار وعنبية ولكن بخصوص المراة يمكن أن يعثر القارىء على تصورات عامة مشتركة بينهما ، مع فرق واضح فى فهم كل منهمـــا لدورها .

(6) اثيرت هذه النقطة من قبل فى دراســة عن بندفعة (مجلة أقلام ، السلسلة الجديدة ، العدد 7) وبالضبط فى معرض البحث عـــن الموقف الفكرى فى الشعر الحديث فى المغرب ، مـــن الواقـــع

الاجتماعي في بلادنا .

(7) يتكرر هذا الموقف في العديد من الانتاجات الادبية الصادرة في المغرب ، في الشعر والقصة بصورة خاصة (نفس التصور يلتقطه ادريس الخوري في مستوى مختلف بعض الشيء ، وهو حتما التصور الذي يلغي دور المراة ككائن اجتماعي — انظر مجموعته حزن في الراس والقلب) .

(8) الاشارة هنا تنسحب حتى على عناوين بعض المجموعات الشعرية التي صدرت في هذه الفترة (حب ، السولامي — اهدائي خوخة ومات ، صبري — أشواك بلا ورد ، بندفعة).

(9) نشر دار السلمي ، 1965 .

(10) (لا ريب أن نشوء البورجوازية العربية اسهم في تزعزع البنية التقليدية للمجتمع العربي ، وتناول بالتحديد تفكيك القيم الطائفية والعشائرية والعائلية وظهر تناقض صدامي محدود بين القيم التقليدية هذه وبين قيم المجتمعات الراسمالية والاشتراكية . الا ان الاتجاه السائد حتى الان هو لصالح تكون مجتمعات استهلاكية عربية ، مع تكون متحدات انتاجية . والمراة العربية تجد نفسها أمام تجربة الاحتواء الجديد الذي يجرها نحو المجتمع الاستهلاكي . ذاك أن المجتمع الاستهلاكي بطبيعته ينزع الى تحويل الانسان الى حيوان مستهلك ، ويحتاج بشكل خاص الى المراة لممارسة استغلاله عليها من خلال شعائر « التحرر » و « الرقي ») (ص 28) ، د . خليل احمد خليل ، المراة العربية والتغيرات الرئيسية في عصرنا — دراسات عربية ، يونيو 1973 العدد 8 — انظر ايضا ، المراة واليسار العربي ، عبد الله زخريا ، مواقف ، العدد 12 .

(11) تعبير لعبد الكريم الطبال .

(12) غارودي ، واقعية بلا ضفاف ، ترجمة حليم طوسون ، دار الكتاب العربي ، 1968 ، ص 225 .